الحملات الاسبانية على الموانئ الجزائرية
(١٥٠٥-١٥١٠)

Spanish Expeditions on the Algerian Ports
(1505-1510)

أ.م.د. سمير عبد الرسول العبيدي
Asst. Prof. Dr. Sameer `Abidalrasoul
Al-`Abeidi

الحملات الاسبانية على الموانىء الجزائرية

(١٥١٠-١٥٠٥)

Spanish Expeditions on the Algerian Ports (1505-1510)

أ.م.د. سمير عبد الرسول العبيدي
الجامعة المستنصرية / مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية / قسم الدراسات التاريخية

Asst. Prof. Dr. Sameer `Abidalrasoul Al-`Abeidi
University of Al-Mustansiriya / Mustansiriya Centre foir International and Arabic Studies / Department of Historical Studies

Dr.saa2004@yahoo.com

تاريخ التسليم: ٢٣/ ٤/ ٢٠١٩
تاريخ القبول: ١/ ٧/ ٢٠١٩

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

ملخص البحث

ارتبطت المشكلة الاندلسية بعهد الملكين "الكاثوليكيين" المشهورين بهذا اللقب لشدة تعصبهما ، إذ شهد العام ١٤٧٩ بداية النهاية للوجود العربي في الأندلس عقب توحيد العرش الإسباني (آراغون وقشتالة) تحت حكم إيزابيلا الاولىIsabella I (١٤٧٤ – ١٥٠٤) وزوجها فرديناند الثاني II Ferdinand (١٤٧٩ – ١٥١٦) الديني.

كان من آثار التهجير الجماعي للمسلمين ونزوح أعداد كبيرة منهم إلى الشمال الإفريقي أن حدثت العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في هذه المناطق، وكان من بينهم أعداد كبيرة من البحارة، لذا ظهرت حركة الجهاد البحري ، إذ اعتمدت القوى الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر بسبب عدم قدرتها على الدخول في حرب تقليدية ضد قوى تفوقها بأضعاف من حيث الإمكانيات المتاحة.

شجعت الأسباب السابقة إسبانيا على السعي لنقل حربها الضروس ضد المسلمين الى الشمال الإفريقي، ذلك التوجه كان السمة الأساسية للسياسة الاسبانية في القرن السادس عشر، لكن كان للقيادة الأسبانية أسبابها في اختيار الموانيء الجزائرية بحكم كونها قواعد لسفن المجاهدين، إضافة لأهميتها الاقتصادية، فشرعت بسلسلة من الحملات العسكرية ضدها للمدة(١٥٠٥-١٥١٠).

Abstract

The Year 1479 marked the beginning of the end of the Arab presence in Andalusia following the unification of the Spanish throne (Aragon and Castile) under the reign of Isabella I (1474- 1504) and her Husband Ferdinand II (1479 - 1516) . The effects of the mass displacement of Muslims and the displacement of large numbers of them to the north of Africa come to the fore as there are many social and economic problems in these areas, including the large numbers of sailors, so emerged the movement of jihad maritime . Thus the new forces adopt in their jihad hit and run policy because of the lack of Its ability to engage in a conventional war against forces that are far more numerous in terms of possibilities .

The previous reasons encourage Spain to seek to transfer its virulent war against Muslims to North Africa. This trend sets the main feature of Spanish politics during the Sixteenth Century, but the Spanish leadership has its reasons in choosing the Algerian ports as bases for the Mujahideen's ships in addition to its economic importance.

المقدمة.

يُجمع غالبية المؤرخين على عد عام ١٤٩٢ بداية للعصور الحديثة، لأنه شهد حدثين تاريخيين، على درجة عالية من الأهمية، أولهما نهاية الحكم العربي في الاندلس(٧١١-١٤٩٢)، وثانيهما اكتشاف كريستوف كولمبوس للعالم الجديد، لكن مايهمنا هنا بالتحديد هو الحدث الأول بحكم تأثيره الطويل في تاريخ بلدان الشمال الأفريقي، الممتد الى الوقت الحاضر، عبر قضيتي سبتة ومليلة.

خاض العرب والأسبان صراعا مريرًا امتد عدة قرون، تداخلت فيه عوامل كثيرة داخلية وخارجية، لكن الأمر الثابت، هو انحسار الوجود العربي- الإسلامي، في مقابل توسع خصومهم واكتسابهم للمزيد من الأراضي .

كانت مملكة غرناطة بزعامة بني الأحمر(١٢٣٨-١٤٩٢)، الرمز الاخير للوجود العربي الإسلامي في شبه جزيرة ايبيريا، لذا كانت نهايتها خاتمة ذلك على الصعيد السياسي، وليس الإنساني، إذ استمر وجود العرب المسلمين، حتى العام ١٦٠٩، عندما نفتهم السلطات الأسبانية رسميًا ونهائيًا، عقب صراعات داخلية ومآسٍ انسانية مريرة.

لقد ضمنت المعاهدة التي انهت حكم بني الأحمر، الجزء اليسير من حقوق العرب المسلمين، وبالأخص حرية العبادة، لكن ولأسباب متعددة بقيت حبرًا على ورق، فلم يلتزم بها الحكام الاسبان منذ اللحظة الأولى، إذ عرضوا عليهم التنصير أو النفي الى الشمال الإفريقي، ومن هنا بدأت مأساة انسانية أخرى أشد وطأة، استخدم فيها الاسبان وبدعم مباشر من الكنيسة الكاثوليكية، ورجال الدين أكثر الاساليب قسوة، في تنفيذ هذه السياسة الرسمية غير الإنسانية.

كان من نتيجة ذلك أن هاجرت اعداد كبيرة من المسلمين، ومن قبلهم اليهود،

بسبب الاضطهاد السياسي والديني الرسمي والأهلي الممنهج، الى موانئ الشمال الأفريقي حيث حظوا بدعم اشقائهم في العقيدة، ومن هناك شرعوا بإمكانياتهم البسيطة، لكن بحماستهم المنقطعة النظير، بشن غارات على السفن والموانئ الاسبانية.

الحقت هذه الهجمات خسائر كبيرة بالأسبان، على الصعيد المادي والبشري، وهذا دفع السلطات للتحرك العاجل، والرد مباشرة، عبر تجهيز حملات عسكرية، تستهدف احتلال قواعد انطلاق سفن المجاهدين في الشمال الأفريقي؛ لذا حظيت الموانئ الجزائرية، بالنصيب الوافر من هذه الحملات، بحكم كونها مراكز رئيسة للنشاط البحري.

تألف البحث من مقدمة وتمهيد تاريخي، تطرق لبدايات الصراع، ثم دراسة موسعة لدوافع ومجريات الحملات الاسبانية التي لم تختلف كثيراً في سماتها عن السياسة الرسمية المتبعة تجاه مسلمي إسبانيا من حيث الاساليب الوحشية، والنزعة الدينية المتطرفة، ما جعلها تحظى ومنذ انطلاقتها بدعم معنوي ومادي كبير من الكنيسة الكاثوليكية؛ ليعقبها توثيق ما ترتب عليها من نتائج على مستقبل العلاقات بين ضفتي البحر المتوسط ، ليكون ذلك خاتمة البحث.

اعتمد البحث على مصادر عربية ومعربة متنوعة؛ للإلمام بجميع جوانب الموضوع، يأتي في مقدمتها كتاب أندرو هيس (افتراق العالمين الاسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس،١٩٨٦)، الذي يبحث في جذور الصراع ونتائجه بمنهجية تاريخية متميزة ، تبعاً لرؤية علمية شمولية، وعلى مختلف الاصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ ثم كتاب أحمد توفيق المدني (حرب ال٣٠٠ سنة بين الجزائر و اسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢)، الذي يشير عنوانه بوضوح الى عنف الصراع

وعمقه التاريخي، بحكم امتداده على مدى ٣ قرون،ونشير كذلك الى كتاب نيقولاي ايفانوف (الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤، ٢٠٠٤)، الذي قام مؤلفه بدراسة الابعاد السياسية- الاجتماعية للعلاقات بين أطراف الصراع المختلفة؛ في حين تطرقت للموضوع بالتفصيل بعض الكتب التي اهتمت بتاريخ الدولة العثمانية، على الرغم من أنها لم تتدخل تدخلاً مباشرًا إلا في عهد السلطان سليم الاول (١٥١٢-١٥٢٠)، لعل من أهمها كتاب (إدريس الناصر رائسي، العلاقات العثمانية – الأوروبية في القرن السادس عشر، ٢٠٠٧).

تمهيد(الجذور التاريخية للصراع).

يقدم تاريخ شبه جزيرة ايبيريا سلسلة متصلة من التساؤلات التي ماتزال بحاجة الى إجابة؛ ويقدم تاريخ إسبانيا سلسلة من التناقضات التي لا يمكن العثور عليها في تاريخ أي من الأمم الأوروبية الأخرى، وفوق الاراضي الإسبانية تكونت بعض أهم الحضارات في العالم من رومانية الى عربية، إلا أن الحضارة العربية كانت الأهم والأشمل والأكثر ديمومة وتأثيراً في العصور الحديثة، وفي حين تمكنت معظم الدول الأوروبية من استغلال التركة الحضارية والعلمية العربية التي تطورت في الأندلس، فإن إسبانيا لم تُحسن الاستفادة من ذلك ، واختارت حمل السيف لحل مشاكلها وزيادة ثرواتها في العالمين القديم والجديد؛ وإذا كان التوسع يتضمن تقويض الحضارة العربية في الأندلس أو حضارتي الانكا والازتك في العالم الجديد، فإن ذلك لم يكن مهماً بالنسبة للإسبان، الذين لا ينكرون أن دولتهم التي سيطرت في القرن السادس عشر على أراضٍ لم يسيطر عليها أحد من قبلهم، كانت نتاج الحرب التي خاضوها ضد الاندلسيين على مدى قرون عديدة، ولكن في حين تمكن أصحاب الفتح من بناء حضارة راسخة بالاعتماد على السكان المحليين، فإن إسبانيا لم تتمكن من السيطرة بشكل كامل على المناطق التي يسكنها الاندلسيون من دون ابعادهم تدريجيًا، بلغ ذروته في العام ١٦٠٩[١] .

ارتبطت المشكلة الاندلسية بعهد الملكين "الكاثوليكيين" المشهورين بهذا اللقب لشدة تعصبهما ، إذ شهد العام ١٤٧٩ بداية النهاية للوجود العربي في الأندلس عقب توحيد العرش الإسباني (آراغون وقشتالة) تحت حكم إيزابيلا الاولى **Isabella I** (١٤٧٤ – ١٥٠٤) وزوجها فرديناند الثاني **Ferdinand II** (١٤٧٩ – ١٥١٦) الديني ؛ بمعطيات سياسية واقتصادية واجتماعية هي التي حددت مسار السياسة

الإسبانية نحو الوجود الإسلامي، فإسبانيا كانت تبحث بدأب عن وحدتها السياسية متخطية بذلك كل الحواجز التي كانت تعوق هذه الوحدة :

حواجز ديموغرافية بفعل التفاوت الجغرافي العميق الذي نتج عنه انعزال العديد من المناطق التي تمسكت بهويتها واستقلالها الى الوقت الحاضر (كتالونيا، الباسك، الأندلس).

حواجز اقتصادية: التفاوت الطبقي بفعل وجود قوى الاقطاع ذات الامتيازات الكبيرة المتوارثة، وهي تحظى بنفوذ وسلطات تؤدي الى التفكك أكثر من أن تؤدي الى الوحدة والمركزية، ففي قشتالة كانت الأسرة المالكة، دائماً ضعيفة الامكانيات بسبب وجود عدد من النبلاء الاقطاعيين الذين كانوا يعارضون السلطة ويضيقون الخناق على كل مشاريعها في تعزيز الوحدة، بالإضافة الى المدن التي كانت تحظى بحقوق قديمة، والكنيسة الكاثوليكية التي كانت تتمتع بسلطات دنيوية وروحية واسعة.

لكن العرش القشتالي تمكن في النهاية من التغلب على بعض هذه الصعاب بفضل الحماسة الدينية ومحاربته للعرب والاستيلاء على المناطق التي كانت بحوزتهم، فكان، هذا السياق هو المحور الذي تمركزت حوله الوحدة ثم السياسة الإسبانية، إذ جعل من قشتالة مركز استقطاب لعدد من المتطوعين المتحمسين دينياً في الظاهر، في حين كانت الاطماع الاقتصادية هي ماتدفعهم للتحرك، إذ اعتمدت قشتالة على الزراعة وتركز النشاط الاقتصادي بيد المسلمين واليهود، في حين اعتمدت آراغون على النشاط التجاري في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط.

ظهرت هذه السياسة في عهد الملكة إيزابيلا الكاثوليكية، إذ جعلت من بين أهم اهدافها طرد العرب والاستيلاء على أراضيهم والقضاء على آخر معاقلهم في غرناطة، متجهة الى الوحدة مع آراغون، ممثلة بملكها فرديناند الكاثوليكي الذي كانت تحركه الطموحات نفسها؛ لذا كان لهذه الوحدة نتائج حاسمة على الصعيدين الداخلي والخارجي:

على الصعيد الداخلي:

تمكن الملكان الكاثوليكيان من تنظيم السلطة وإعادة النظام، فالنبلاء ألغيت امتيازاتهم ودخلوا في صف الملكين الكاثوليكيين، والأوامر العسكرية أصبحت مرتبطة بالعرش، وحفظ الأمن الداخلي بواسطة قوات مدربة تخضع للسلطة المركزية، ما أسهم بتعزيز الأمن وفرض سلطة الدولة.

على الصعيد الخارجي: اتجهت إسبانيا نحو مغامرات خارجية، وبالفعل فقد برزت نتائج الوحدة الأسبانية على الخارج أكثر من إسبانيا نفسها [٢] .

وتزامن الطابع المتعصب للكنيسة في تلك المدة مع الانتصارات المستمرة للحكام الآيبيريين على الأندلسيين، ليظهر بجلاء أن اندفاع عملية الاسترداد لا يمكن صده؛ لكن وعلى خلاف الحكام المسلمين، كانت المعاملة للمسلمين واليهود تأتي دائماً بمنزلة تنازل سياسي مؤقت، وليست التزاماً دينياً، إذ كانت تسترشد في المقام الأول بالرغبة في ضمان المعاملة بالمثل للمسيحيين، الذين كانوا يعيشون على الأراضي الإسلامية كذلك بالمنافع الاقتصادية التي كان المسلمون واليهود يدرونها على ممالك إسبانيا قليلة السكان، ومع اشتداد زخم الانتصارات وتحول المسيحيين مرة أخرى الى الأغلبية في آيبيريا كلها، أصبح موقف المسلمين محفوفًا بالخطر.

تجلى التحول بالبداية على نحو مباشر في إسبانيا عبر تغير المعاملة الرسمية مع اليهود، الذين كانوا يحظون بمعاملة طيبة من لدن الحكام المسيحيين في آيبيريا، إذ اشتهروا بمهاراتهم المالية والإدارية، ومع حلول العصور الوسطى المتأخرة، كانت إسبانيا قد أصبحت وطنًا لأكبر تجمع يهودي في أوروبا، لكن الامور تسارعت، فتم طرد جزئي للمسلمين، أو جرت محاولات للقيام بذلك، في ممالك إسبانيا، على أن تلك الاحداث تهون أمام النكبة التي تعرض لها اليهود في ١ آذار١٤٩٢، عندما

أُعلن مرسوم يقضي بتجريم التفاعل بين النصارى واليهود، ومنحوا مدة ٤ شهور و١٠ أيام، لتغيير دينهم أو النفي، وفضلت الغالبية العظمى منهم المنفى، عبر موجة نزوح جماعي ، وصفها الكاهن والمؤرخ أندريس بيرنالديث على النحو الآتي :

"تركوا جميعاً مسقط رأسهم في حالة من اليأس، الأطفال والبالغون، والمسنون والشباب، مشياً على الأقدام وعلى عربات، والسادة على حمير وغيرها من البهائم، وتوجهوا جميعاً الى موانيء الترحيل، جازوا في رحلتهم، خلال الطرق والحقول في حالة من البؤس، ليلاقي كل مصيره، فيقع بعضهم وينهض آخرون..،وبعضهم تنصر على مضض وبقوا، لكنهم قليلون جداً..." [٣] .

وفي المرحلة الأخيرة من الصراع (١٤٨٤-١٤٩٢)، التي لم يكُن القتال فيها يستمر دائماً الى النهاية، كما حدث في مالقة، التي استسلمت دون قيد أو شرط بتأريخ ١٨ آب١٤٨٧، إذ تمت التسوية باتفاقيات استسلام بين الغالبين والمغلوبين، وهذه الاتفاقيات تقسم شروطها الاساسية الى ثلاثة أقسام، تشترك كلها في " الاعتراف بالحريات الشخصية، والحفاظ على التركيبة الاجتماعية، والنُظم القضائية والثقافية للمغلوبين"؛ وتميزت المُوقعة منها بعد هذا العام، بكونها تمنح المسلمين إمكانية الحفاظ على كل ممتلكاتهم، أما معاهدة التسليم ، التي عُقدت في ٢٥ تشرين الثاني ١٤٩١[٤]، فقد شملت تحرير الاسرى بطريقة شبه تلقائية، كان التسامح، الذي هو سمة مشتركة بين كل هذه الوثائق، يتزايد كلما كانت تُشرف الحرب على نهايتها.

لكن هذه النيات الحسنة لم تصمد في مواجهة الواقع، إذ إن بعض البنود الاساسية ظلت حبرا على ورق، فعلى سبيل المثال، ألغي الترخيص بحمل السلاح بعد مدة قصيرة، وبعد مدة قصيرة كذلك، حُرم الأندلسيون المستقرون بسهول غرناطة من الحق في شراء الأراضي وهو إجراء استهدف تسهيل إعمار المنطقة بالمسيحيين؛ وما

كان أكثر خطورة من هذا وذاك هو أن السلطات قامت في مناسبتين، عام ١٤٩٥، و١٤٩٩، بفرض ضرائب جديدة عليهم دون سواهم، ما أصابهم بخيبة أمل مريرة،لأنهم كانوا يتوقعون سياسات أقل إجحافاً [٥].

ضمنت معاهدة التسليم ذات السبعة والستين شرطاً احترام المسلمين في دينهم وأملاكهم وسلامتهم وحرية حركتهم، لكنها سرعان ما نقضت، تحت تأثير الكنيسة ذات النفوذ الطاغي، بزعامة رئيس اساقفة طليطلة الكاردينال فرانثيسكو خيمينيث دي ثيسنيروس **Francisco Jiménez de Cisneros** (١٤٣٦-١٥١٧)، لما له من تأثير مباشر على الملكة إيزابيلا، فابتدأت الدعوة الى تنصير المسلمين بطريقة الإرشاد أولاً؛ ثم كانت الكارثة العظمى في عام ١٤٩٩ عندما صدر مرسوم يقضي بإجبارهم على تغيير دينهم وحظر إقامة شعائرهم الدينية، وغلق مساجدهم، وحرقت مئات الالاف من الكتب الخاصة بالمسلمين ، فلم يبق منها إلا ٣٠٠ كتاب في الطب [٦].

أدت هذه الاجراءات المتعصبة، الى اندلاع انتفاضة حي البيازين في غرناطة في ١٨ كانون الثاني ١٤٩٩، ما يؤشر لبداية مرحلة جديدة من الصراع، اتخذت طابع المواجهة المسلحة، ليعقبها صدور ثلاثة مراسيم ملكية مثلت قطيعة رسمية كاملة مع جميع مظاهر الماضي والوجود العربي الاسلامي في إسبانيا، وهي:

المرسوم الأول (٢٠ تموز١٥٠١): منع وجود المسلمين في مملكة غرناطة،ويحظر عليهم الاتصال بغيرهم خشية أن يتأخر تنصيرهم، ويمنع عليهم الاتصال بمن تنصروا حتى لا يؤثروا عليهم، وكل من يخالف ذلك يعاقب بالموت وتصادر ممتلكاته.

المرسوم الثاني (١٢ آذار١٥٠٢): يلزم كل مسلم حر يبلغ عمره ١٤ عام ، إن كان

ذكراً، و١٢ عام للأنثى، أن يغادر مملكة غرناطة قبل ١ آيار١٥٠٢، على أن يسمح لمن يريد الخروج أن يتصرف في ممتلكاته، على أن لا يكون الخروج إلى إفريقيا بسبب حالة الحرب مع إسبانيا، وكل من يخالف ذلك يعاقب بالموت وتصادر ممتلكاته.

المرسوم الثالث (١٢ أيلول ١٥٠٢):حظر على المسلمين التصرف في ممتلكاتهم قبل انقضاء عامين،ويحظر عليهم مغادرة مملكة قشتالة، إلا الى مملكتي الآراغون والبرتغال [٧].

أولا: دوافع الحملة الإسبانية.

أ.الدوافع الخارجية .

فرضت إسبانيا أقسى الإجراءات التعسفية على الأندلسيين في محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الآيبيرية، نتيجة لذلك لجأ الأندلسيون الى القيام بثورات وانتفاضات في أغلب المدن الإسبانية، التي يوجد فيها المسلمون، وخاصة غرناطة وبلنسية، لكن أخمدت السلطات تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة واتخذتها وسيلة لتعميق مشاعر الكره والحقد نحوهم، ومن جهة أخرى كان من الطبيعي أن يرنو بأنظارهم الى ملوك المسلمين في المشرق والمغرب لإنقاذهم، وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم إليهم للعمل على إنقاذهم مما يعانونه من ظلم، وخاصة رجال الكنيسة ودواوين التفتيش التي أباحت جميع أنواع العقوبات ضدهم.

كانت أخبار الأندلس قد وصلت الى المشرق فضجّ لها العالم الإسلامي، وبعث السلطان المملوكي الأشرف سيف الدين قايتباي(١٤٦٨-١٤٩٦) بوفود تحمل رسائل الى روما وملوك أوروبا،يذكرهم فيها أن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية، في حين أن أبناء دينه في المدن الإسبانية يعانون من أشد الظلم، فهدد بإتباع السياسة نفسها، إذا لم يتوقف الاضطهاد الممنهج، لكن لم تحظ دعوته بالقبول، واستمرت السلطات باتباع خطتها في تصفية جميع مظاهر الوجود الإسلامي .

ووجهت كذلك رسائل الاستغاثة الى السلطان العثماني بايزيد الثاني(١٤٨١-١٥١٢)، إذ بدأت بتعظيم وإكبار السلطان العثماني ثم إبراز شكواهم التي تتلخص " بتوضيح شعور المسلمين المتنصرين ، نحو الدولة العثمانية، ثم يطلب الموريسكيون بعد ذلك تدخل السلطان بايزيد لإمدادهم وإنقاذهم مما هم فيه، وأن يتوسط للتخفيف عنهم، مشيراً الى أن سلطان مصر قد توسط لدى المسيحيين للتخفيف

عنهم ولكنهم لم يغيروا شيئاً وظلوا في تشددهم وتعنتهم .. " .

على الرغم من حدة تلك الرسالة وحاجة أهلها للإنقاذ، إلا أن بايزيد الثاني لم يفعل شيئاً، إذ كان لديه من المشاكل ما يعوق إنقاذ هولاء الناس، ومع ذلك فقد قام بالاتصال بالأشرف قايتباي،لتوحيد الجهود من أجل مساعدة غرناطة، ووقعا اتفاقاً يرسل بموجبه بايزيد الثاني أسطولاً الى سواحل صقلية التابعة لإسبانيا، وان يجهز الأشرف قايتباي حملات أخرى من ناحية إفريقيا، وبالفعل أرسل أسطولاً عثمانيًا تجول قرب الشواطيء الإسبانية، لكن لم يتغير شيء على الأرض(٨) .

وبعثوا استغاثتهم الثالثة في عام ١٥٠١الى سلطان المماليك قانصوه الغوري (١٥٠١-١٥١٦)، لوجود القدس تحت سيطرته التي كان يعيش فيها مجموعة كبيرة من المسيحيين، وأوضحوا ما وصلت عليه حالتهم بعد سقوط غرناطة، ودعوه ليتوسط لدى الملكين الكاثوليكيين حتى يحترما معاهدة التسليم، فأرسل وفدًا الى إسبانيا، وهدد "بأنه سيجبر النصارى المقيمين في بلاده على الدخول في الاسلام قسراً، إذا لم تراعَ المعاهدة" ،فأوفدت إسبانيا مبعوثًا لمقابلة السلطان الغوري، ونجح في إقناعه بأنهم "يعاملون الاندلسيين معاملة حسنة، إذ يحظون بنفس الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الأسبان" (٩) .

وكان من آثار التهجير الجماعي للمسلمين ونزوح أعداد كبيرة منهم الى الشمال الإفريقي أن حدثت العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في هذه المناطق، وكان من بينهم اعداد كبيرة من البحارة؛ لذا أصبح من الضروري أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد منهم الى طريق الجهاد ضد القوى الاوروبية في البحر المتوسط، يأتي في مقدمتها الوازع الديني بسبب حجم الظلم الذي تعرضوا له.

ظهرت حركة الجهاد البحري بشكل غير منتظم ضد الإسبان والبرتغاليين، إذ اعتمدت القوى الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر بسبب عدم قدرتها على الدخول في حرب تقليدية ضد قوى تفوقها بأضعاف من حيث الإمكانيات المتاحة [١٠] .

بدأت هذه الغارات البحرية على الشواطيء الإسبانية منذ اوائل القرن السادس عشر، مع استقرار المنفيين الاندلسيين في بعض القواعد البحرية، بخاصة على الساحل الجزائري، ووهب الكثيرون منهم حياتهم للجهاد والسعي للقصاص من أولئك الذين تسببوا في تشريدهم، وكان البحر يوفر لهم هذه الإمكانية التي لم تتحها الحرب البرية؛ لذا كانت سواحل الشمال الإفريقي بطبيعتها الوعرة، وثغورها ومراسيها، وخلجانها الكثيرة التي تحميها الصخور العالية أفضل ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين، وكانت مياه الجزائر وتونس افضل قواعدهم للرسو والإقلاع، إذ كانت غاراتهم على الشواطيء الإسبانية ولاسيما في المياه الجنوبية تتجدد بلا انقطاع، وتنجح في معظم الأحيان في تحقيق غاياتها، وكان حكام الثغور من تونس الى وهران يشجعون هذه العمليات العسكرية، ويسمحون للمجاهدين بالرسو والتموين في ثغورهم؛ ولقد ظهر في هذا الوقت عنصر جديد أذكى موجة الغارات البحرية في هذه المياه، ذلك أن البحارة العثمانيين أخذوا يندفعون نحو غرب البحر المتوسط، وبرز منهم الأخوان بربروسا (عروج وخير الدين) [١١] .

لقد نتجت فكرة تجهيز سفن المجاهدين في الجزائر بشكل مباشر عن دوافع خاصة، محورها الرغبة في الثأر الشخصي؛ لذا اتسمت الهجمات ضد الإسبان بالشجاعة والفدائية ، لكونهم اضطهدوا المسلمين أكثر من أية دولة أوروبية أخرى؛ إذ كان المجاهدون يجهزون سفنًا صغيرة تشبه سفن الإسبان، ثم يراقبون السواحل ويقومون بنوع من التجارة، وفي الوقت نفسه يحتجزون السفن التجارية الإسبانية

التي تقع بين أيديهم ويقودونها الى قواعدهم البحرية، ولا تدوم هذه الجولات البحرية الخاطفة، في العادة أكثر من ٥-٦ أيام، وعلى الرغم من أن قباطنة هذه السفن يجهلون فن الملاحة، فإنهم يعرفون تضاريس الساحل الإسباني في الشمال والساحل الإفريقي في الجنوب، وكانت قمم الجبال هي بوصلتهم التي ترشدهم في سيرهم لتساعدهم على بلوغ الهدف [١٢] .

في واقع الأمر يُعد القرن السادس عشر قرناً محورياً إذ شهد تحولات وتبدلات كبيرة جدًا على جميع المستويات، وإذ عُرف بقرن المجابهات الحربية بين مختلف الأطراف، فهو بلاشك قرن التحولات الضخمة في الأنظمة السياسية والاتصالات المباشرة والبعثات التي حصلت بين أطرافه عبر البحر المتوسط، وهو أيضًا قرن التحالفات الظرفية والمنافع العاجلة، وبالإضافة الى ذلك فهو قرن يستحيل فيه فصل الدين عن السياسة، في الظاهر على الأقل، وعلى الأخص منها ما كان متصلاً بملف الصراع في البحر المتوسط .

لذلك يجب أن لا يغيب عنا أن الدين قد أثر في فكر الإنسان وسلوكه في القرن السادس عشر، تلك هي الحقيقة التي تبين لنا بعض الحوافز وتشرح لنا طبيعة الأحداث والصراعات السياسية والعسكرية في منطقة البحر المتوسط، إذ اتخذت تلك الصراعات أشكالاً عديدة؛ ذلك أن طرفي الصراع بين الشرق الإسلامي من العرب والعثمانيين والغرب الأوروبي المسيحي قد أضفيا على القرن السادس عشر حركية وديناميكية أسهمتا بدور فاعل في بلورة وتحديد وجهة الأحداث السياسية الحاسمة [١٣] .

عدّ الاسبان هذه المقاومة ضمن " أعمال اللصوصية " التي كانت سائدة نتيجة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعرفها المنطقة، لكنها كانت غير ذلك بالنسبة للأندلسيين، فهي تدخل في إطار المواجهة الحضارية المستمرة بين الطرفين،

أي إنها كانت معركة بقاء، ومن ثم فإن الأعمال التي كانوا يقومون بها لم تكن في نظرهم أعمالاً إرهابية أو أخلاقية وعفوية، بل كانت أعمالا هادفة ومخططا لها ، فهي من قبيل الأعمال الفدائية وحروب التحرير لمقاومة موجات القمع الإسباني الموجه ضدهم لمسخ حضارتهم ونفي كيانهم.

ترتكز المقاومة على ثلاثة عناصر أساسية:

– المقاتلون المحليون :**Gandules**أعضاء الجماعات المسلحة بالمدن، وينضم إليها غالباً الشبان، وهي مستعدة للقتال داخل المدن،؛ لذا كان لها دور كبير في الانتفاضات المسلحة ضد السلطات الإسبانية.

– البحارة **Piratas**: هم في مفهوم النصوص الإسبانية أولئك الذين ينطلقون من سواحل الشمال الإفريقي للقيام بغارات على السواحل الإسبانية، وهم يعملون بذات الطريقة،ويتولى قيادتهم في الاغلب عناصر من الاندلسيين المنفيين، إذ يرسون في العادة بمكان مهجور، ثم ينطلقوا الى هدفهم، أي مهاجمة المواقع الإسبانية؛ والعمليات متعددة خلال القرن السادس عشر، مع الإشارة إلى تأثيرها الفعال، إذ يعود سبب ذلك الى المشاركة الفعالة للأندلسيين المقيمين بالمنطقة الذين غالباً ما يكونون على علم مسبق بالغارة، إذ كانت للمجاهدين شبكة قوية من العيون تزودهم بالمعلومات من داخل إسبانيا.

–المنفيون **Monfiers**: هم في قاموس الأكاديمية الإسبانية " المغربي أو المورسكي الذي يشكل جزءا من الجماعات المقاتلة بمنطقة الأندلس بعد عمليات إعادة الغزو " ، فالمنفي بالنسبة للإسبان هو عبارة عن " مجرم حرب " لاغير.

في حين كان بالنسبة للأندلسيين، بطل الحرية، ولهذا نرى احترامًا وتقديرًا هائلين باعتبارهم رمزًا للتحرر من قمع الكنيسة، كونهم يهاجمون بالأساس رجال الدين

وأصحاب الفنادق الذين يعملون جواسيس للسلطات، كذلك التجار من اجل الحاق الضرر بالاقتصاد الإسباني، ويبدو أن هذه الهجمات كانت مصدر رعب كبير، ويتضح من المطالب المستمرة التي قدمت الى السلطات للتصدي لها، بغية الحد من تأثيرها على حياة الناس (١٤) .

إلى جانب ما سبق ذكره، يبرز دافع خارجي آخر، إذ ازداد انحلال دول الشمال الإفريقي، وتفاقم الأمر ، وقسمت المنطقة إلى ثلاث دول، هم بنو وطاس (١٤٧١ – ١٥٥٣) في المغرب الأقصى ، وبنو حفص (١٢٣٧ – ١٥٧٣) في تونس وطرابلس الغرب وأجزاء من الجزائر التي اقتسموا حكمها مع بني عبد الواد (١٢٣٦ – ١٥٥٤)، وكانت هذه الدول في حالة صراع مستمر مع بعضها ، إذ يصفها المؤرخ الجزائري أحمد توفيق المدني(١٨٩٩-١٩٨٣)، بقوله " تقهقر، وفوضى، وإنحلال، تلك الكلمات التي تلخص لنا، دون حاجة الى اطناب وتفصيل حالة بلاد المغرب العربي المؤلمة، في مفتتح القرن السادس عشر، وهي تجابه الاحداث الجسام، وتشهد خروج العالم من عصوره الوسطى المظلمة، الى العصر الحديث، فبينما كان السلطان المسيحي يجمع صفه ويوحد قواه ويستعد للمعركة الحاسمة ضد الاسلام والمسلمين،..، كان المغرب العربي مقسماً – نظرياً- الى ثلاث دول،..، لكن ازدهار هذه الدول كان يذبل شيئا فشيئا، وسقطت كلها في وهدة الانقسامات والحروب الداخلية الهوجاء،فحروب داخل كل دولة بين الطامعين في العرش، ومايجره ذلك من المحن والبلايا، وحروب بين الدول الإسلامية،.. وهكذا انقضى القرن الخامس عشر كله في مد وجزر. واستقلت الجهات العديدة، في اطراف وفي وسط المغرب العربي بنفسها، مؤلفة امارات اقطاعية أو ملوك طوائف واهين،..، فلا تكاد تعرف خلال فترة الانحطاط والتدهور حدود معروفة لدولة، ولا تخوما مرسومة لإمارة.

وذاق الشعب من جراء هذه الجرائم التي لا يغفرها الله ولا يستسيغها التاريخ، أهوالا وخطوبا لا يستطيع القلم وصفها... " [١٥] .

كانت الجزائر تمثل لوحة محزنة لبلد مُدمر، مستعبد تتنازعه الصراعات الداخلية، وفي الواقع لم تقم في المغرب الأوسط أي سلطة حكومية موحدة، فكانت البلاد ممزقة ومجزأة الى إقطاعيات مستقلة متعددة، وإمارات للبدو الُرحل، ومدن يحكمها طغاة مستبدون، وكان غرب الجزائر تحت حكم سلطان تلمسان ابي عبدالله محمد عبد الواد(١٥٠٥-١٥١٦)وحاكم دليس الذي كان يسيطر على وادي الشليف ومدينتي ميديا ومليانة، أما الأراضي الواقعة الى الشرق من الوادي الكبير فقد اعتبرت تحت حكم سلطان تونس الحفصي،فشكلت هناك إمارات مستقلة عاصمتها بجاية حتى عام ١٥١٠، ثم قسنطينة التي حكمها الأمراء الحفصيون المحليون، أما سلاطين قبيلة كوكو وقبيلة ولد عباس فلم يعترفوا بسلطة أحد، وفي جنوب البلاد كانت الزاب والحسضة وغيرها من المناطق الصحراوية تحت حكم زعماء البدو المستقلين، على أن مناطق ومدنًا كثيرة ولاسيما على الساحل لم تكن تخضع لأحد، بل كان يحكمها مختلف المغامرين الذين استولوا على السلطة في ظروف مختلفة [١٦] .

ب. الدوافع الداخلية

شجعت الاسباب السابقة إسبانيا على السعي لنقل حربها الضروس ضد المسلمين الى الشمال الإفريقي، وذلك التوجه كان السمة الاساسية للسياسة الاسبانية في القرن السادس عشر؛ وحظيت ومنذ البداية بدعم كامل من مؤسسة البابوية، إذ اصدر البابا الكسندر السادس **Alexander VI** (١٤٩٢-١٥٠٣) مرسومًا يبارك فيه هذا التوجه، ليعقب ذلك توقيع معاهدة توردیسیلاس **Treaty of Tordesillas** بتأريخ ٧ حزيران ١٤٩٤، بين البرتغال وإسبانيا، بموجبها قُسِّم الشمال الإفريقي الى قسمين "اولى تقع شرق حجر باديس ويتولاها الإسبان والثانية تقع غرب هذه النقطة وقد تُركت للبرتغال"، فأصبحت إسبانيا سيدة الموقف دون منازع فيما بين بجاية شرقاً ووهران غرباً وصخرة الجزائر وسطاً (١٧).

تطلب التحضير لهذه الحملة العسكرية استعدادات مكثفة، وإمكانيات كبيرة، بدأها البابا في روما الذي عمل على وضع جميع الإمكانيات البشرية والمادية تحت تصرف الملوك الإسبان، من أجل إبعاد المسلمين من الأندلس أولاً، وإخضاع الشمال الإفريقي ثانياً، ولتحقيق غايته،أصدر البابا أمره السامي لكل رعاياه بأن يستمروا في دفع الضريبة الصليبية **Crusada** لملوك إسبانيا من أجل الحرب القادمة، فجمع رجال الدين اموالاً ضخمة من جراء ذلك (١٨).

كانت هناك عوامل داخلية أخرى دفعت السلطات الإسبانية الى السعي لمهاجمة سواحل الشمال الإفريقي، مردها تنامي الروح الوطنية بين الإسبان بعد أن نجحوا في القضاء على الحكم العربي الإسلامي وطرد المسلمين من بلادهم، فرغبوا بمطاردتهم للتنكيل بهم إينما وجدوا، علاوة على ذلك فإنهم ورثوا مكتسبات الحضارة العربية، التي كانت مزدهرة في بلادهم، فحذقوا اساليبهم في فن الملاحة بعملهم في السفن

العربية، وبسبب ذلك نجحوا في اكتشاف العالم الجديد، وهذا رسخ الشعور الوطني بالنفوذ والتفوق [١٩] .

وتبرز في السياق نفسه العوامل الاقتصادية التي تتلخص بالرغبة في الهيمنة على طرق التجارة البحرية المزدهرة في البحر المتوسط، عبر امتلاك موانيء وأسواق جديدة يستطيعون منها احتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي ترد من طريق القوافل من مناطق الدواخل جنوب الصحراء، ولمزاحمة المدن الإيطالية(جنوة والبندقية) والتي هيمنت على التجارة بين الشرق والغرب مدة طويلة، خاصة بعد ما توفرت لدى الإسبان ومن قبلهم البرتغاليين الأسباب الكافية لمد نفوذهم في هذه المناطق[٢٠] .

كذلك كان للعامل العسكري دوره المباشر في هذا السياق، والمقصود به " التفوق البحري" للقوى الأوروبية، فإمكانيات المجاهدين كانت محدودة لشحة الموارد المالية، فالأندلسيون الذين شكلوا عماد حركة الجهاد البحري، كانوا اكثر ارتباطًا بثقافة البحر المتوسط منهم بثقافة المحيط الأطلسي، لذا فإنهم وجدوا أنفسهم مضطرين الى الاتجاه صوب القسم الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة آيبيريا، ثم أدى الزحف المعادي صوب البحر المتوسط الى ابتعاد المجاهدين عن مضيق جبل طارق واتجاههم صوب مناطق البحر المتوسط التي كانت لا تزال تستعمل السفينة ذات المجاديف، واتخذت عملياتهم نمط الهجمات الخاطفة التي لا تخضع لتوجيه مركزي، معتمدة على السفن الخفيفة ذات المجاديف، والتي تصلح للعمل في البحر المتوسط ، وهو ما يمثل تراكمًا لتراث البحرية الاسلامية.

لم يختلف وضع الدول والقوى المحلية في الشمال الإفريقي عن ما تقدم ذكره، سواء باقتباس تقنية السفينة المحيطية العملاقة أو عن حشد اساطيل من السفن ذات المجاديف، ففي شتى ربوع المنطقة كان يبدو أن جميع الدويلات الصغيرة والفقيرة

لا يمكنها توفير نفقات الإبقاء على أسطول صغير من أي نوع، خاصة وإنها كانت تخشى من أن يتغلب عليها رجال القبائل أو الأوروبيون أو المنافسون المحليون، كما أن الاضطراب المزمن في أوضاعها السياسية قد أدى الى ترسيخ مفهوم المحافظة الاجتماعية في الحياة العسكرية، و التي لم تأخذ بالتجديد الذي كانت تتطلبه التجارب الإمبراطورية الجريئة التي كان يجريها خصومهم الآيبيريون[٢١].

لقد نجح الإسبان في إنهاء الوجود العربي الاسلامي بعد صراع استمر عدة قرون، لكنهم كانوا يخشون من ردة فعل المسلمين في الشمال الإفريقي، الذي طالما مد حكامه المتعاقبون يد العون لإخوتهم في الأندلس قبل سقوطها، لذا توجسوا خيفةً من احتمالية التعاون مع الثوار الأندلسيين، فالقاعدة الحربية التي تتبع باستمرار في مثل هذه الحالة، هي نقل الحرب الى أرض العدو، وإجباره على التمترس للدفاع عن مواقعه، حتى لا يفكر في مهاجمة الطرف الآخر، كذلك اقتنعت القيادة الإسبانية بوجوب مد نفوذها الى الشمال الإفريقي حتى تسبق القوة الناشئة الجديدة في العالم الإسلامي متمثلة بالدولة العثمانية، التي كانت في حالة سيطرتها على المنطقة ستشكل خطرًا كبيرًا على إسبانيا نفسها.

ويبرز كذلك الدافع الاقتصادي، فمع تقويض الحكم الإسلامي وانهيار النظامين الاجتماعي والاقتصادي الاسلاميين في إسبانيا، تشتت شمل المسلمين وأبعدوا عن البلاد، وقد كانوا دعامة الاقتصاد المحلي، كل ذلك أوجد معضلة اقتصادية كبيرة، فالإنتاج تعطل بصفة تامة، وتلاشت وسائل التصنيع، وأصبحت التجارة الخارجية بين تصدير واستيراد كلمة لا مدلول لها؛ أما المعاملات المالية والقروض وما إليها، فقد أصبحت من الماضي، مع طرد اليهود، واضطهاد ومصادرة ممتلكات من بقي منهم على قيد الحياة.

أمام هذه المعطيات والحاجات الداخلية المُلحة، لم يبقَ أمام الإسبان إلا اللجوء للغزو والاستعمار الخارجي، وسيلة لتأمين متطلبات العيش، فاكتساح الشمال الإفريقي كان سيؤمن ذلك، نتيجة مايتمتع به من مزارع غنية، وغابات كثيفة، ومروج واسعة، وثروة حيوانية، وسواحل غنية بالموارد الطبيعية، وصناعات حرفية تتمتع بسمعة عالية، على الرغم مما ينتاب البلاد من فتن وقلاقل وعدم استقرار الحكم في أي مكان، لذا فالشمال الإفريقي يمكن أن يزود إسبانيا بما هي في أمس الحاجة إليه من موارد، وسيوفر الإمكانية للتغلغل في الداخل الإفريقي بغية الوصول الى مناجم الذهب، ثم أنه بالمحصلة سيضع البحر المتوسط بضفتيه تحت الهيمنة الإسبانية، ما سيوفر بذلك الفرصة لتشكيل وحدة اقتصادية بين شمال البحر المتوسط وجنوبه، الأمر الذي يعود على الخزينة الحكومية بمردود مالي وفير [٢٢] .

من جانبه كان الكاردينال المتعصب خيمينيث صاحب النفوذ الكبير في البلاط الإسباني، يخشى توقف الحرب ضد المسلمين، بسبب نزعته الدينية المتطرفة، لذا سعى بشكل محموم لإثارة مخاوف الملكة إيزابيلا الكاثوليكية، التي كانت تربطه بها علاقة وثيقة، وكان يعرف أنها أشد تعصباً من زوجها، فأثار مخاوفها من المسلمين الذين نفوا الى الشمال الإفريقي ، واستعمل اللهجة التحريضية التي كان يعلم أنها ستكون مسموعة لدى أصحاب القرار في إسبانيا.

في واقع الأمر لم يكن من الصعوبة عليه إثارة هذه المخاوف، فقد كان يكفيه التذكير ببعض الحقائق، وكان يكفيه ابداء بعض الملاحظات، ثم الجمع بين الاثنين ليستخلص منها النتيجة الوحيدة التي تهم في نظره، وهي "إن العرب والمسلمين لا يعتبرون خروجهم من الأندلس هزيمة نهائية، لقد أخفوا سلاحهم، ومعظم رؤسائهم تظاهروا فقط بالانهزام في انتظار الفرصة المواتية، لينقضوا من جديد على

الأندلس ويشهروا الحرب مرة أخرى على المسيحية، وأنه لابد من القضاء على أوكار القراصنة المسلمين في الشمال الإفريقي " [٢٣] .

ثانيا: الحملات العسكرية.

أ.الاستعدادات الأولية

رافق نجاح إسبانيا في انهاء الوجود العربي الإسلامي ظهور اهتمام رسمي نحو مايُعرف "بحركة الاستكشافات الجغرافية"، وأنهمكت جيوشها في أوروبا بسلسلة من النزاعات العسكرية المتقطعة، عُرفت بالحروب الايطالية (١٤٩٤-١٥٥٩)[٢٤]، لكنها ارسلت حملة عسكرية خاطفة نجحت بالاستيلاء على ميناء مليلة الصغير في ١٧ أيلول ١٤٩٧ [٢٥].

وفي أثناء ذلك استجابت الملكة بسرعة الى نصائح خيمينيث، إذ كلفت أحد أعوانها، بمهمة التجسس على مملكة تلمسان، فتنكر بزي تاجر عربي، ليمضي أكثر من عام فيها، بغرض جمع المعلومات؛ ووقع اختيار خيمينيث على جيرونيمو فيينالي **Geronimo Vinalla**، وهو مغامر من البندقية، لمساعدته بخبرته على تجهيز خطط الغزو، إذ مارس عدة مهن وتقلب بين مهام مختلفة، فقد كان بحارًا ومهندسًا كما شارك في الحروب الإيطالية وكانت له معرفة جيدة و خبرة واسعة بسواحل الشمال الإفريقي التي خبرها وتنقل بينها بحاراً وتاجراً[٢٦].

كانت تلمسان قاعدة المغرب الأوسط الشرقي منذ أيام الموحدين (١١٣٠-١٢٦٩)، هذا الموقع الاستراتيجي هو ما سمح بقيام واستمرار دولة بني عبد الواد، إذ لا يرجع ذلك إلى صلابة بُنيان الأسرة التي أسست الدولة ومن أيدها من القبائل الزيانية، وإنما الى حصانة موقع تلمسان وقدرة هذا الموقع على التصدي لعوامل الانهيار، فهي في موقع وعر يتحكم بالطريق من قلب الصحراء الى البحر المتوسط وقوافل التجارة لابد أن تمر بها والهضبة التي تقوم عليها تزيد من مناعتها، ولقد تدهور بنو عبد الواد ثم عادوا الى النهوض أكثر من مرة، واختفوا ثم عادوا الى الظهور أكثر من مرة كذلك، والفضل في ذلك لحاضرتهم تلمسان [٢٧].

بعد أن تجمعت المعلومات اللازمة لدى إيزابيلا الكاثوليكية، قررت أن يبدأ العمل العسكري بمهاجمة مملكة تلمسان، وجهزت لهذا الغرض حملة من ١٢٠٠٠ جندي، بقيادة دييغو دي فرنانديز دي كوردوبا **Diego Fernandez de Cordoba**، الذي كان آنذاك يشغل منصب حاكم غرناطة، لكن الملكة توفيت بتأريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٥٠٤، فتوقفت بشكل مؤقت الاستعدادات للحملة العسكرية، التي كانت أغلى أمنياتها، وعندما فتحت وصيتها المؤرخة في ١٢ تشرين الأول ١٥٠٤، وجد فيها الإصرار على وجوب مواصلة السعي لغزو الشمال الإفريقي والاستمرار في الحرب ضد المسلمين (٢٨) .

جاء في الوصية ما نصه " لمن يتولون المُلك بعدها بأن يحققوا الأمنية الغالية على قلبها، والتي كانت تود ولو أنها قد حققتها بنفسها لو طال بها الأجل، إلا وهي فتح افريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار(الذين هم المسلمون) " (٢٩) .

لابد من أن نشير هنا الى القواسم المشتركة التي تحكم وجهة نظر معظم المؤرخين الأوروبيين من الموضوع، كمثال على ذلك المؤرخ الفرنسي البارز دي غرامون **De Gramon. H**، وهو من مؤرخي القرن التاسع عشر، الذي لايتردد أن يبرر في كتابه "الجزائر تحت الحكم العثماني"، الهجوم الإسباني، بالآتي "في ربيع سنة ١٥٠٥، كما قال سواريز مرنتانيز، نظم القراصنة (أي عرب أسبانيا) القاطنون بمرسى الكبير هجوماً على شاطيء فالانس(فالنسيا)، واستغلوا ظلام ليلة ليلاء فخربوا ضواحي إلش(ميناء في بلنسية، شرق إسبانيا)، واليكانتي(ميناء تاريخي، عاصمة مقاطعة لفنت، التابعة لبلنسية)، ورجعوا من هذا الهجوم محملين بالأسرى والغنائم. وبعد ذلك بأيام قلائل، عندما سمعوا بأن مدينة جيجل (ميناء، شرق الجزائر) هوجمت من طرف بواخر من مالقة (عاصمة مقاطعة مالقة،جنوب إسبانيا)، تجرأ القراصنة

على الدخول ليلاً الى ميناء مالقة، وأضرموا النار في البواخر التجارية التي وجدوها بها، فكانت الخسائر فادحة، وعم الاستياء واضطر الملك فرديناند الى أن يصمم على تحطيم هذا الوكر من اوكار القراصنة".

بهذا يبرر دي غرامون الهجوم الاسباني على المرسى الكبير، في حين أن تسلسل الأحداث التاريخية يشير بجلاء إلى عكس ما ذهب إليه، إذ إن نشاط حركة الجهاد البحري يجب أن يوضع ضمن الإطار العام للتطورات التاريخية على ضفتي البحر المتوسط، عقب سقوط غرناطة، و ما تلاه من الأحداث المأساوية المتلاحقة التي جرت بحق الأندلسيين (٣٠) .

كان للقيادة الأسبانية أسبابها في اختيار ميناء المرسى الكبير، الواقع في غرب الجزائر لنزول أولى الحملات العسكرية، إذ يبدو أن سبب ذلك كان للرد على الغارة التي ذكرها دي غرامون، لكن لم يكن هذا السبب الوحيد أو حتى المباشر كما أسلفنا، إضافة لذلك تبرز أهمية الميناء التجارية، إذ كان من عادة سفن البندقية أن تلجأ إليه عند هبوب الأعاصير ، ثم ترسل بضائعها في قوارب الى وهران، وإذا كان الجو صحواً قصدتها مباشرة، ويعتبر بسبب موقعه في غرب وهران التي لا يبعد عنها إلا نحو ٦ كم، قاعدة متقدمة لها أهميتها في عملية التحضير للهجوم المرتقب على هذا الميناء ذي الأهمية العسكرية والاقتصادية الكبرى (٣١) .

ب.احتلال المرسى الكبير٢٣ تشرين الأول ١٥٠٥.

استعد الاسطول الإسباني في مدينة مالقة يوم ٢٩ آب ١٥٠٥، لكن أجبرته الأعاصير على الانتظار حتى ٩ أيلول ١٥٠٥، وقد استفادت الحملة من هذا الأمر بشكل غير مقصود، فقد سمع السكان بخبرها واستعدوا لمواجهتها، لكن تأخرها حملهم على الظن بأن الإسبان تخلوا عن خطتهم بمهاجمة الميناء، أو أنهم كانوا يقصدون هدفًا آخر.

وصلت الحملة يوم ١١ أيلول ١٥٠٥، وشرعت على الفور بإنزال الجنود، تحت غطاء كثيف من القصف المدفعي، ونظرًا للمفاجأة، لم يجدوا سوى عدد قليل من المدافعين ، لم يتجاوز عددهم نحو ٥٠٠ رجل ، لذلك لم يتمكنوا من مواجهة التفوق العددي والناري للمهاجمين، لكنهم استبسلوا في القتال لمدة ثلاثة أيام متواصلة، أمام عدو يفوقهم ١٠ أضعاف من حيث العدد، ولا يمكن المقارنة بين الطرفين من حيث الأسلحة والتجهيزات العسكرية الأخرى.

لكن استشهاد قائد الحامية في اليوم الأول للمعركة والحصار الخانق الذي وقعت فيه، وانقطاع المياه عنها بالإضافة الى التفوق الكبير للمهاجمين، كل هذا أدى بالمدافعين الى قبول الاستسلام بعد حصار استمر مدة خمسين يومًا (٣٢).

كان لهذا القرار ما يبرره على الأرض، فاستمرار المقاومة، واللجوء لأسلوب قتال الشوارع، لن يغني عنهم في واقع الأمر شيئاً، نظراً لتفوق المهاجمين، واحتلالهم للساحل، فالمقاومة التي يتلوها الانهيار، سيكون مآلها أن يأتي السيف عليهم جميعاً، علاوة على انتهاك الحُرمات.

بالمقابل منح القائد العام الإسباني، مدة ثلاث ساعات للسكان، كي يخلوا المدينة وبقية الحصون، وينسحبوا عن آخرهم، من ٩-١٢ ظهراً، على شرط أن لا يأخذوا

معهم أي شيء من الزاد والمؤن، ولا من حيوانات الركوب، ولا من الأسلحة، أي أنهم لم يأخذوا معهم إلا ثيابهم وما خف من أموالهم.

أخلى السكان المدينة أول الأمر من النساء، ثم تبعهم الرجال، وعندما أتموا ذلك، دخل الإسبان المدينة، ورفعوا راياتهم فوق مبانيها، لكن على الرغم من الأمر الصارم الذي أصدره قائد الحملة لجنوده بعدم تحطيم أي شيء في المدينة،او القيام بأعمال حفر فيها ، لرغبة القيادة بالاحتفاظ بها مركزًا لعملياتها المقبلة، فإن الجيش قد اندفع محطماً ومنقباً من اجل التفتيش عن الأموال والذخائر التي يكون السكان قد تركوها خلفهم [٣٣] .

انصرف الاسبان على الفور الى تحصين المدينة وتعزيز مواقعهم ، لخشيتهم من محاولة تحريرها، ولم يخب ظنهم، ففي اليوم التالي، وصل جيش المجاهدين وقوات تلمسان، وكان عددهم نحو ٢٢٠٠٠ من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان، لكن الحامية الإسبانية كانت قد تمركزت بقوة في المدينة؛ ثم حاولت قوة الفرسان اقتحام المدينة ، غير أن الحامية أحبطت هذه المحاولة، التي وصفها أحد شهود المعركة "لم أر في حياتي اطلاقاً ابدع من هذه الفرقة المؤلفة من ثلاثمائة من الفرسان العرب التي كان يقودها القائد ابن دالي- ولا أرهف سلاحاً، سواء من حيث خيولها المطهمة البالغة منتهى الجمال، أو من حيث ذلك الجهاز الفاخر المطرز الذي كان يكسوها " [٣٤] .

ما كاد خبر احتلال المرسى الكبير يصل إسبانيا، حتى غمرتها موجة من الابتهاج وأعلن فيها الاحتفال مدة ثمانية أيام، إثر ذلك طلب الملك من قائد الحملة أن يحضر لتكريمه، فعاد مع الأسطول وترك حامية من نحو ٨٠٠ جندي بأمرة أحد قادته المقربين، فانصرفوا الى تحصين مواقعهم، كما سعى الى توسيع شبكة اتصالاته خارج الحصن، فاستولى جنوده على المنابع المائية في الطريق المؤدي الى وهران، وبنى حصنًا

تموضعت فيه فرقة عسكرية بشكل دائم، وحاول ان يستميل إليه سكان المناطق المحيطة، لأنه كان يعرف أهمية وسائل التموين، ففتح لهذا الغرض سوق على مقربة من الحصن، لكن السكان رفضوا جميع اغراءات المحتلين، بل أخذوا يغتنمون كل فرصة لشن هجمات خاطفة يفاجئون بها العدو، بحيث يمكن القول إن وضع احتلال المرسى الكبير ليست إلا قصة حصار دائم [٣٥] .

ج.احتلال وهران ١٨ آيار ١٥٠٩

وهران ميناء تجاري مزدهر في شمال غرب الجزائر، تبعد عن مدينة الجزائر ٤٣٢كم، يصفُها الرحالة الحسن الوزان(١٤٨٣-١٥٥٤) الذي زارها في المدة(١٥١٦-١٥٢٠)، بقوله "مدينة كبيرة فيها ستة الآف كانون، بناها الأفارقة الأقدمون، على شاطيء البحر المتوسط، بعيدة بنحو مائة وأربعين ميلاً عن تلمسان. وبها من البنايات والمؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة، من مساجد ومدارس وملاجيء وحمامات وفنادق، محاطة بأسوار عالية جميلة، يقع جزء من المدينة في السهل، والجزء الآخر في جبل شديد الارتفاع، كان معظم سكانها من الصناع والحاكة، ويعيش الكثير من أهلها من مدخولهم،..." .

كانت وهران محطة للتجار الكتلونيين والجنويين، وبها دار تسمى دار الجنويين لأنهم كانوا يقيمون بها، حظيت باستقلال داخلي، وكان الوهرانيون دائماً أعداء لملك تلمسان، لم يقبلوا قط أي والي من ولاته، ماعدا اميناً للمال وقابضاً يستلم مداخيل الميناء، وكانوا ينتخبون رئيس مجلس ينظر في القضايا المدنية والجنائية، وكان سكانها ناشطين في حركة الجهاد البحري، حيث دأبوا على مهاجمة سواحل اقليم كتالونيا وجزر البليار ومنورقة وميورقة، حتى أصبحت المدينة تزخر بالأسرى [٣٦] .

أعطى تولي الأدميرال بيدرو نافارو **Pedro Navaro** (١٤٦٠-١٥٢٨) قيادة

الحملة على المغرب العربي في المدة (١٥٠٨-١٥١١) زخماً إضافياً لتوسيع نطاق عمليات الأسبان الحربية التي تزامنت ثانيةً مع عودة الهدوء في الحروب الإيطالية للمدة (١٥٠٩-١٥٠١١) فضلاً عن التعهد الذي قدمه خيمينيث بتغطية نفقات الحملة، مقابل قيادته لها، والوعد الذي تلقاه بأن تلحق بأسقفية طليطلة التابعة له جميع المناطق التي سيتم احتلالها في الشمال الإفريقي بالمستقبل [٣٧] .

كانت عملية الغزو أسهل مما هو متوقع، لأن حاكم المرسى الكبير اتفق مع قابض الميناء اليهودي أشطورا واثنين من رفاقه من السكان، على تسليم المدينة بحسب خطة متفق عليها، ولدى نزول القوات، تقدم السكان لمحاربتهم، ولم يتركوا خلفهم في المدينة سوى عدد قليل من السكان؛ لذلك سنحت الفرصة للمتآمرين فغلقوا الأبواب ونصبوا على احد الأبراج صليبًا أحمر كان حاكم المرسى الكبير قد أرسله إليهم خفية ليتخذوه شارة يستحثون بها المهاجمين إذا وصلوا أمام المدينة، وسلموا اليه مفاتيح أبواب المدينة، وفي أثناء المعركة تسلق عدد من الجنود الأسوار من الطرف الآخر بينما كان السكان يقاتلون بالخارج، فدخلوها وهاجموا المدافعين من الخلف، فكانت مذبحة كبيرة لهم، فتشتتوا، تاركين المدينة بما فيها من النساء والأطفال، على الرغم من أن بعضهم صمد حول المسجد الأعظم في حي الفقيه مدة خمسة أيام، لكن المعركة حُسمت، في حين بلغ عدد الشهداء والأسرى نحو ٤٠٠٠ الآف، ما يؤكد حجم الكارثة التي أصابت وهران [٣٨] .

انطلقت القوات الإسبانية تقتل وتأسر وتستبيح وتنتهك الحرمات، بحضور خيمينيث ومباركته، ونهب رجال الحملة ماقدرت قيمتهُ بنحو ٤٨ مليون دينار جزائري اقتسمها الجنود، وكان نصيب خيمنيث منها وفيراً، واتجه على الفور، نحو تحويل مساجد المدينة الى كنائس، وجعل المسجد الأعظم كاتدرائية.

كان لسقوط وهران نتائج كبيرة، شكلت نجاحًا كبيرًا للسياسة الإسبانية، تمثلت بما يأتي:

- اعتراف حاكم تلمسان ابي عبدالله محمد عبد الواد(١٥٠٥-١٥١٦)، بالتبعية للإسبان، مع تقديم جزية سنوية لهم مقدارها ١٢٠٠٠ دوكة ذهبية.

-خضوع قبائل بني عامر وغيرها من القبائل الواقعة ضمن دائرة وهران للحكم الإسباني، مع مايترتب على ذلك من التحالف وتقديم العون[٣٩] .

تسبب هذا النجاح الكبير في زيادة الخلافات بين خيمينيث وفرديناند الكاثوليكي، بسبب رغبة الأول في التوغل بمناطق الدواخل، وتأسيس دولة موالية لإسبانيا بدافع من روحه المتطرفة، لكن الملك لم يشاركه تطلعاته، لانشغاله بالحروب الايطالية، فقطع كل اتصالاته مع البلاط الإسباني، واعتزل الشأن السياسي، حتى وفاته في ٨ تشرين الثاني١٥١٧ [٤٠] .

د. احتلال بجاية ٥ كانون الثاني١٥١٠

ميناء مزدهر في شرق الجزائر، تبعد عن العاصمة نحو ٥٠ كم، يسميها الحسن الوزان" مدينة بجاية الكبيرة" ولهذه التسمية أسبابها، فهي مدينة عريقة بناها الرومان، على منحدر شاهق على ساحل البحر المتوسط، تحيط بها أسوار عالية متينة، وتناهز كوانينها ثمانية آلآف، ودورها كلها جميلة، وفيها جوامع كافية، ومدارس يكثر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم، بالإضافة الى زوايا المتصوفة وحمامات، وفنادق ومستشفيات، وكلها صروح مشيدة حسنة البناء، وأسواقها جميلة منسقة أحسن تنسيق، كذلك توجد قرب الجبل قلعة كبيرة متينة الجدران مزخرفة بالفسيفساء والجص المجزع والخشب المنقوش، وكان سكانها على قدر كبير من الثراء، يسلحون العديد من السفن الحربية المختلفة لغزو شواطيء إسبانيا [٤١].

كانت بجاية تخضع بشكل أسمي للدولة الحفصية، بما يسمى " مملكة بجاية "، فلم يكن السلطان الحفصي أبو عبدالله محمد الخامس(١٤٩٤-١٥٢٦)، يملك قوات أو إمكانات كافية لإقرار الأمن والنظام في دولته، إذ كانت الوحدات الأساسية في قواته هي الفصائل المسلحة ذاتها التابعة للأقطاعيين، أما جُند الموحدين القديم المنضبط فتفسخ وفقد أهميته العسكرية، ليحل محله جيش محترف صغير من الجنود المرتزقة مُكون من الجنود المرتزقة الايطاليين والأندلسيين والعبيد السود أو العبيد الافريقيين المعتقين والمرتزقة الشرقيين، وعند ظهور أي خطر خارجي كانت تلتحق بهذا الجيش الفصائل المسلحة التابعة للقبائل وسكان المدن، في حين كانت تحمي السلطان فرقة من حرس إسباني بلغ عدد أفرادها ١٥٠٠ رجل.

لم يكن تجهيز القوات الحفصية على المستوى المطلوب، ولم يكن يحمل أسلحة نارية إلا المرتزقة الأجانب وأعيان القبائل، أما القوات الأساسية فلم تكن مسلحة إلا بالحراب والأقواس، كما أن المنشئات في القلاع البحرية كانت تفتقر الى الكثير من ضروريات الدفاع، فأصبح الجيش الحفصي الذي كان يُعد أحد أفضل الجيوش في الشمال الإفريقي، غير ذي جدوى لمقاتلة أي عدو قوي، ولم يتمكن الأسطول من مواجهة سفن إسبانيا والمدن الإيطالية بل عجز حتى عن التصدي للقراصنة الأوروبيين الذين عاثوا فساداً في السواحل الحفصية [٤٢].

كانت إسبانيا تسير في حملتها وفق خطة مُحكمة مجهزة سلفاً، فما كادت تثبت أقدامها في الجهة الغربية في مملكة تلمسان، حتى وجهت أنظارها الى الجهة الشرقية الخاضعة للحفصيين، فوقع اختيارها على بجاية، عاصمة ذلك الجزء من املاك الدولة الحفصية المتهالكة، مايعني فرض حصار مطبق على السواحل الجزائرية، من الجانبين[٤٣].

تقع بجاية على مجرى وادي الصومام الذي يخترق الجبال القبائلية عند مدينة (أقبو)، ونظرا لأهمية موقعها، ولمكانتها، فقد كانت الهدف التالي للحملة الإسبانية، التي استُهلت بمناورة خداعية، إذ غادر الأسطول المرسى الكبير في ٣٠ تشرين الثاني ١٥٠٩،حتى إذا وصل جزر البليار وصلته قوة دعم إضافية، ثم أقلع بقوة تبلغ ٢٠ سفينة كبيرة تحمل ١٠٠٠٠ جندي، مدعمة بالمدفعية الضخمة والآت الحصار، ووصلت هذه القوات الى الساحل يوم ٥ كانون الثاني١٥١٠ ،وبدأت المعركة على الفور بين حامية بجاية والإسبان، ثم تسلق المدافعون مرتفعات الجبال بغرض منع المهاجمين من النزول، غير أن مدفعية الأسطول مكنتهم من القيام بذلك، وأسرع السكان بأجلاء النساء والأطفال، فيما احتلت بقية القوات مواقعها في المدينة للدفاع عنها.

قسم نافارو قواته إلى فرقتين: واجب الفرقة الأولى مجابهة قوة المدافعين في الجبال، وواجب الفرقة الثانية اقتحام المدينة، ودارت معركة دامية أسفرت عن انتصار الإسبان وإبادتهم لأكثر من ٤٠٠٠ من السكان، وتدمير المدينة بشكل شبه كامل، وأدى الانتصار الى تحقيق مكاسب غير مباشرة للإسبان، تفوق بأهميتها احتلال بجاية، تتمثل، فيما يأتي:

-خضوع السلطان الحفصي، وقبوله دفع الجزية لهم.

-خضوع الجزائر التي أصبحت مطوقة من الشرق ومن الغرب(بجاية ووهران)، وتعهد حاكمها الشيخ سالم بن تومي، بدفع الجزية، وموافقة سكانها على تسليم جزيرة اسطفلة المقابلة للجزائر من أجل اقامة قاعدة بحرية إسبانية [٤٤].

ثالثا: (نتائج الحملات الإسبانية).

لاشك أن غالبية المؤرخين بالغت في اعتبار العوامل الدينية ذات أهمية كبرى في انطلاق الحملات الإسبانية أو كما سموها" الحرب الصليبية الإفريقية"، بخاصة دراسات المؤرخ الفرنسي المعروف فرديناند بروديل Fernand Braudel(١٩٠٢-١٩٨٥)، التي أبرزت خصائصها بوضوح، من دون أن ننكر طبعاً ماكان يتمتع به فرديناند الكاثوليكي من حماس ديني على الأقل، في مراسلاته الرسمية، وما كان لرجال الكنيسة من مسؤولية عظمى في تنظيم الحملات الأولى، فالواقع أن المصالح المادية هي التي سرعان ما شكلت العامل الأساسي، فلقد جعل ملك إسبانيا "انتصار العقيدة" مشروطاً باعتبارات سياسية داخلية وخاصة خارجية ليس لها علاقة البتة بالدين، وسلك الجنود الغزاة مسلك المرتزقة، فهم لا يبحثون عن " النجاة من النار" بقدر ما كانت تهمهم المكاسب المادية بالنهب والتقتيل.

لقد أصر المتعصبون على ظهور "خطر الإسلام" من جديد ، بسبب ثورات الأندلسيين ووجود "يد مغربية خفية تُحيك الدسائس والمؤامرات"، لكن الأمر برمته لا يعدو أن يكون انتفاضة شعب استفزته مواقف خيمينيث المتطرفة، إذ عُرف بحدة الطبع وتأجج العاطفة الدينية والمطامح الدنيوية فاستغل حماس الكاثوليك الديني وحملهم بجهد جهيد على نقل الحرب الى الشمال الإفريقي حيث كان المنفيون الاندلسيون يحرضون الناس ضدهم بسبب حجم مأساتهم الكبير، فيحظون بالتعاطف والدعم المادي، وبرزت رؤية تبدو أقرب ما تكون للخيال، لكنها أثارت ذعر الإسبان، تتلخص بإمكانية التحالف بين حكام الشمال الإفريقي ودولة المماليك [٤٥].

كانت خطوط التحصينات في الشمال الإفريقي تشبه القلاع التي كان يستعملها محاربو قشتالة في الإغارة على غرناطة لكونها تقع على حافة أراضي الأعداء، إلا ان خط التحصينات هذا لم يكُن الغرض منه أن يكون متحركاً، بل أمر فرديناند الكاثوليكي قادة الحدود الإسبان دون مواربة ان يكرسوا جهودهم للمحافظة على هذه المراكز الحربية باعتبارها أبراجاً دفاعية لايقيم فيها سوى المسيحيين في الوقت الذي تشكل فيه بعض القبائل الموالية الدرع الواقي من هجمات الأعداء إذ جرى إغرائؤهم بتنشيط التجارة وجعل محلاتهم العسكرية مكتفية ذاتياً (٤٦).

في ظل نظام الاحتلال المحدود الذي لا يأخذ بالحسبان مسألة البقاء الثابت والطويل الأمد في البلاد، لم يعمل الإسبان على تأسيس جهاز إداري فعال خاص بهم، فبقيت السيطرة في المناطق بأيدي الحكام المحليين التابعين الذين تم اغراؤهم بالمكتسبات المادية، مع التلويح المستمر باستخدام القوة، لذا لم يطرأ تغيير يُذكر على مُجريات الحياة المحلية وأنظمتها(٤٧).

امتنعت إسبانيا عن التوسع في الغزو رغم تفوقها العسكري الكبير، لأن مسألة التوسع في الشمال الأفريقي كانت تحتل المرتبة الثانية في قائمة اهتمامات فرديناند الكاثوليكي، إذ وجه اهتمامه للشأن الأوروبي، ويعود تدخله العسكري الواسع في المدة(١٥٠٩-١٥١٠)، الى الهدوء في الحروب الايطالية كما كان عليه أن يضع بحسبانه الجانب المادي، إذ لم تسمح المتطلبات الكبيرة التي تواجهها الخزينة من الاندفاع نحو مشاريع استعمارية مكلفة غير ذات طائل في المستقبل المنظور، لذلك لم تكن السياسة الإسبانية في الشمال الإفريقي، مستقلة بذاتها في القرن السادس عشر ولايمكن فهمها من دون ربطها بالسياسة العامة للبلد (٤٨).

الهوامش.

١.عادل سعيد بشتاوي، الاندلسيون المواركة (دراسة في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة)،ط١، القاهرة، مطابع انترناشيونال برس، ١٩٨٣، ص ١٤. للتفاصيل ينظر: ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، الموريسكيون في الفكر التاريخي، ط١، ترجمة وسام محمد جزر، مراجعة محمد عبد الرحمن، القاهرة، المجلس الاعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٩٥٩، ٢٠٠٥، ص٧-٩٣.

٢. د. محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين ١٦-١٧، رسالة دكتوراه منشورة(جامعة الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ١٩٨٧)، ط٤، الدار البيضاء، ٢٠١٤، ص ٦١-٦٣. للتفاصيل ينظر: **Jean Hippoly Mariejol، The Spain Of Ferdinand And Isabella، Translated By Benjamin Keen، New Brunswick، New Jersy، University Press**، ١٩٦١

٣. ماثيو كار، الدين والدم (إبادة شعب الأندلس)،ط١، ترجمة د.مصطفى قاسم، مراجعة د.أحمد خريس، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، ٢٠١٣، ص١١٣-١١٥.

٤. للتفاصيل ينظر: مؤلف مجهول، اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، ط١، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩١، ص٥٦-١١٣ .

٥. أنطونيو دومينغيث أورتيث، بيرنارد فانسون، تاريخ الموريسكيين(حياة ومأساة أقلية)، ط١، ترجمة محمد بنياية، مراجعة زينب بنياية، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، ٢٠١٣، ص٢١-٢٢ .

٦.محمد العروسي المطوى، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦، ص٦٥٤ . للتفاصيل ينظر: ليفي بروفنسال، الحضارة العربية في إسبانيا، ط٣، ترجمة د.الطاهر احمد مكي، القاهرة، دار المعارف، يناير١٩٩٤، ص٩٧-١٤٧

٧.د.علي مظهر، محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال وغيرها، القاهرة، المكتبة العلمية، ١٩٤٧، ص ٢٦-٢٧ . للتفاصيل ينظر: ماثيو كار، المصدر السابق، ص ١٥٧-١٦٣ ؛ مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ١١٤-١١٩ .

٨.د.فتحي زغروت، العثمانيون ومحاولة إنقاذ مسلمي الأندلس٨٩٨هـ-١١١٥هـ=١٤٩٢م-١٦٠٩م، ط١، القاهرة، دار التوزيع والنشر، ٢٠١١، ص٤١-٤٢ .

٩.نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات التاريخية، ١٩٨٧، ص ١٠٣ .

١٠. د.فتحي زغروت، المصدر السابق، ص١٤٩ . للتفاصيل عن دور المهاجرين الاندلسيين الحضاري في الشمال الإفريقي ينظر: د. محمد رزوق، المصدر السابق، ص ٣١٨-٣٥٦ .

١١. بسام العسلي، خيرالدين بربروسا، ط١،بيروت، دار النفائس،١٩٨٠، ص٨١ . للتفاصيل ينظر: مذكرات خير الدين بربروس، ط١، ترجمة د.محمد دراج، الجزائر،شركة الأصالة للنشر والتوزيع،٢٠١٠، ص٢١-٥١ .

١٢.حمدان بن عثمان خوجة،المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق د. محمد العربي الزبيري، الجزائر، منشورات **ANEP**، ٢٠٠٦، ص٧٩ .

١٣.إدريس الناصر رائسي، العلاقات العثمانية – الأوروبية في القرن السادس عشر، ط١، بيروت، دار الهادي للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ص ٥٥ .

١٤. د. محمد رزوق، المصدر السابق، ص ١٠٤-١٠٥ .

١٥. أحمد توفيق المدني،.حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢، الجزائر، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، بلا، ص٦٤- ٦٥ . للتفاصيل ينظر: مبخوت بو دواية، العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الاسلامي مع دول جنوب غرب أوروبا}ق٧-١٠ه/ ١٣-١٦م{، أطروحة دكتوراه غير منشورة،الجزائر،جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، شعبة التاريخ، ٢٠١٣-٢٠١٤، ص٢٤-٣٤ .

١٦. نيقولاي إيفانوف ،الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ – ١٥٧٤ ، ط٢، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٤ ، ص١١٩-١٢٠.

١٧. إدريس الناصر رائسي، المصدر السابق، ص٦٥ . سبقت البرتغال إسبانيا بمضمار التوسع الاستعماري في الشمال الإفريقي، إذ احتلت ميناء سبتة في ٢٤/ ٨/ ١٤١٥. للتفاصيل ينظر: مارمول كربخال، أفريقيا،ج٢، ترجمة محمد حجي وآخرين، الرباط، دار المعرفة للنشر والتوزيع، ١٩٨٨-١٩٨٩، ص٢١٦-٢٢١ .

١٨. بسام العسلي، المصدر السابق، ص٥٨ .

١٩. نبيل عبد الحي رضوان، المصدر السابق، ص١٥٠ .

٢٠. إدريس الناصر رائسي، المصدر السابق، ص٦٤ . لقد سبقت البرتغال جميع بلدان القارة الأوروبية في ميدان الاستكشافات الجغرافية، الذي ارتبط بانطلاقته بجهود الأمير هنري الملاح

Henry The Navigator (١٣٩٤-١٤٦٠)، ثم تلاهم الإسبان بعد عدة عقود، عن طريق الرحالة الجنوي كريستوف كولومبوس Christophorus Columbus (١٤٥١-١٥٠٦) عام ١٤٩٢. للتفاصيل ينظر: د. مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج٢،ط٣، عمان، الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع،٢٠٠٩، ص ٤٠٥-٤١٦ .

٢١. أندرو هيس ، افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس ، ط١ ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، ١٩٨٦ ، ص٣٢-٣٣ .

٢٢. أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص٨٢-٨٩ .

٢٣.مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج٣، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، ١٩٦٤، ص١٩-٢٠ .كان الكاردينال خيمينيث من اشد رجال الكنيسة قسوة في ملاحقة المسلمين واضطهادهم، وكان الداعم الرئيس لإنشاء فرع في غرناطة لمحاكم التفتيش سيئة الصيت، التي أسست لمطاردة اليهود ثم المسلمين في مرحلة لاحقة. للتفاصيل ينظر: د.علي مظهر، المصدر السابق، ص ٧٠-٨٣؛ ١٠٧-١٢٥ .

٢٤.الحروب الايطالية (١٤٩٤-١٥٥٩): جرت بين فرنسا وإسبانيا وحلفائهما، استهلت مرحلتها الاولى للمدة (١٤٩٤-١٤٩٨)، ثم(١٤٩٩-١٥٠٤). للتفاصيل ينظر:د.مفيد الزيدي، المصدر السابق، ص٤٤٨-٤٥٤ .

٢٥.أندرو هيس، المصدر السابق، ص٦٣-٦٤ .للتفاصيل ينظر: الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ج١، ط٢،ترجمه عن الفرنسية د. محمد حجي و د. محمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٣، ص٣٤١ .

٢٦. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المصدر السابق، ص ٢٠-٢١ .

٢٧.ابن الاحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ط١، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، ٢٠٠١، ص ١٤-١٥ . للتفاصيل ينظر: الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص١٧-٢٤ .

٢٨. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المصدر السابق، ص ٢٠-٢١ .

٢٩. بسام العسلي، المصدر السابق، ص٥٩ .

٣٠. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المصدر السابق، ص ٢١ .

٣١. نبيل عبد الحي رضوان، المصدر السابق، ص١٥٢ . للتفاصيل عن أهمية موقع المرسى الكبير ينظر: مارمول كربخال، المصدر السابق، ص٣٢٧-٣٢٨ .

٣٢. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المصدر السابق، ص ٢٢-٢٣ .

٣٣. أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص٩٧-٩٩ .

٣٤. بسام العسلي، المصدر السابق، ص ٦١ .

٣٥. مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المصدر السابق، ص٢٣ -٢٤.

٣٦. الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص٣٠ .

٣٧. أندرو هيس، المصدر السابق، ص٦٦-٦٧ .

٣٨. مارمول كربخال، المصدر السابق، ص٣٣٠-٣٣١ .

٣٩. بسام العسلي، المصدر السابق، ص ٦٦-٦٧ . للتفاصيل ينظر:عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،ج٢، ط٢، الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، ١٩٦٥، ص١٩٦-٢٠٠.

٤٠. نبيل عبد الحي رضوان، المصدر السابق، ص١٥٥ .

٤١. الحسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص٥٠ . للتفاصيل ينظر: مارمول كربخال، المصدر السابق، ص٣٧٥-٣٧٧ .

٤٢. نيقولاي إيفانوف، المصدر السابق، ص٢١٤-٢١٥ .للتفاصيل عن الجيش الحفصي ينظر، أحمد بن عامر، الدولة الحفصية (صفحات خالدة من تاريخنا المجيد)، تونس، دار الكتب الشرقية، أكتوبر ١٩٧٤، ص ٣٧-٤٠ .

٤٣. أحمد توفيق المدني، المصدر السابق، ص١١٩ .

٤٤. بسام العسلي، المصدر السابق، ص ٦٨-٦٩ . للتفاصيل ينظر: مارمول كربخال، المصدر السابق، ص٣٧٧-٣٧٩ .

٤٥.شارل أندري جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج٢، ط٣، تعريب محمد مزالي، البشير بو سلامة، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣، ص ٣٢٢-٣٢٣.

٤٦. أندرو هيس ، المصدر السابق، ص ٦٨. للتفاصيل ينظر:إدريس الناصر رائسي، المصدر السابق، ص٦٣-٦٨ .

٤٧. نيقولاي إيفانوف، المصدر السابق، ص ١٢١ .

٤٨. شارل أندري جوليان،المصدر السابق، ص٣٢٤ . كان للمقاومة العربية دور مهم في محاربة المحتلين، ومنعهم من التفكير في التوغل بمناطق الدواخل. للتفاصيل ينظر: مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المصدر السابق، ص٢٧- ٣٠ .

قائمة المصادر.

أولا: الرسائل الجامعية غير المنشورة.

١. مبخوت بو دواية، العلاقات السياسية والاقتصادية لدول المغرب الاسلامي مع دول جنوب غرب أوروبا}ق٧-١٠ه/ ١٣-١٦م{، أطروحة دكتوراه غير منشورة،الجزائر،جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية، شعبة التاريخ، ٢٠١٣-٢٠١٤ .

٢. نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات التاريخية، ١٩٨٧ .

ثانيا:المصادر العربية والمعربة.

١. ابن الاحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، ط١، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، ٢٠٠١.

٢. أحمد بن عامر، الدولة الحفصية (صفحات خالدة من تاريخنا المجيد)، تونس، دار الكتب الشرقية، أكتوبر ١٩٧٤.

٣. أحمد توفيق المدني،.حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا ١٤٩٢-١٧٩٢، الجزائر، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، بلا.

٤. إدريس الناصر رائسي، العلاقات العثمانية – الأوروبية في القرن السادس عشر، ط١، بيروت، دار الهادي للطباعة والنشر، ٢٠٠٧ .

٥. الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ج١، ط٢،ترجمه عن الفرنسية د. محمد حجي و د. محمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٣.

٦. أندرو هيس ، افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس ، ط١ ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، ١٩٨٦ .

٧. أنطونيو دومينغيث أورتيث، بيرنارد فانسون، تاريخ الموريسكيين(حياة ومأساة أقلية)، ط١، ترجمة محمد بنياية، مراجعة زينب بنياية، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، ٢٠١٣.

٨. بسام العسلي، خيرالدين بربروسا، ط١،بيروت، دار النفائس،١٩٨٠ .

٩. حمدان بن عثمان خوجة،المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق د. محمد العربي الزبيري، الجزائر، منشورات ANEP، ٢٠٠٦ .

١٠. شارل أندري جوليان، تاريخ أفريقيا الشمالية، ج٢، ط٣، تعريب محمد مزالي، البشير بو سلامة، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣ .

١١. عادل سعيد بشتاوي، الاندلسيون المواركة (دراسة في تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة)،ط١، القاهرة، مطابع انترناشيونال برس، ١٩٨٣ .

١٢.عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،ج٢، ط٢، الجزائر، مكتبة الشركة الجزائرية، ١٩٦٥.

١٣. د.علي مظهر، محاكم التفتيش في اسبانيا والبرتغال وغيرها، القاهرة، المكتبة العلمية، ١٩٤٧.
١٤. د.فتحي زغروت، العثمانيون ومحاولة إنقاذ مسلمي الأندلس ٨٩٨هـ-١١١٥هـ=١٤٩٢م-١٦٠٩م، ط١، القاهرة، دار التوزيع والنشر، ٢٠١١.
١٥. ليفي بروفنسال، الحضارة العربية في إسبانيا، ط٣، ترجمة د.الطاهر احمد مكي، القاهرة، دار المعارف، يناير١٩٩٤.
١٦. ماثيو كار، الدين والدم (إبادة شعب الأندلس)،ط١، ترجمة د.مصطفى قاسم، مراجعة د.أحمد خريس، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، ٢٠١٣.
١٧. مارمول كربخال، أفريقيا،ج٢، ترجمة محمد حجي وآخرين، الرباط، دار المعرفة للنشر والتوزيع، ١٩٨٨-١٩٨٩.
١٨.مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج٣، الجزائر، مكتبة النهضة الجزائرية، ١٩٦٤.
١٩.محمد العروسي المطوى، السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦.
٢٠.د.محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم الى المغرب خلال القرنين ١٦-١٧، رسالة دكتوراه منشورة(جامعة الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ١٩٨٧)، ط٤، الدار البيضاء، ٢٠١٤.
٢١. مذكرات خير الدين بربروس، ط١، ترجمة د.محمد دراج، الجزائر،شركة الأصالة للنشر والتوزيع،٢٠١٠.
٢٢. د. مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج٢،ط٣، عمان، الأردن، دار أسامة للنشر والتوزيع،٢٠٠٩.
٢٣. مؤلف مجهول، اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، ط١، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩١.
٢٤. ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، الموريسكيون في الفكر التاريخي، ط١، ترجمة وسام محمد جزر، مراجعة محمد عبد الرحمن، القاهرة، المجلس الاعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ٩٥٩، ٢٠٠٥.
٢٥. نيقولاي إيفانوف ،الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦ – ١٥٧٤ ، ط٢، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٤.

ثالثا: المصادر الاجنبية.

Jean Hippoly Mariejol، The Spain Of Ferdinand And Isabella، Translated By Benjamin Keen، New Brunswick، New Jersy، University Press، 1961